الفصل الثالث
التشكيل الموسيقي

تعدُّ الموسيقى الشعرية، بما تحمله من رتم رمزي خاص، إضافة إلى القافية أهم عناصر التشكيل الموسيقي.

فمن ناحية «الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة»[1].

وللوزن أهميته عند النُّقاد العرب، فمنهم من وجد الشعر عبارة عن «أقوال موزونة متساوية، ومعنى أنها موزونة أن يكون لها عدد إيقاعي ومعناها متساوية هو أن يكون كل قول فيها مؤلفاً من أقوال إيقاعية في عدد زمانه مساوٍ لعدد زمان الأخرى، على حد قول ابن سينا»[2].

ولأهمية الوزن في الشعر الصوفي، ولحاجة ذلك الشعر لموسيقا خاصة تجعلـه قابلاً للترديد «فالوزن يقوم بتثبيت المعنى وتأكيده، ويجعله يعلق بالقلب ويقيده من الشتات، وهو بالوقت ذاته يوجب على الشاعر أن يفكر بدقة أكثر، وأن يعبر عن نفسه بصورة أكثر وضوحاً، فيلزم الشاعر بانتقاء أنسب الألفاظ وأوجزها»[3].

والوزن يدل على حالة الشاعر النفسية ويكشف عنها.. لأن اختيار البحر الذي يتألف من مقاطع عروضية مرتبط ـ كما يرى الغربيون في بحثهم وزن الشعر ـ بينه وبين نبض القلب الذي يقدره الأطباء في الإنسان السليم بعدد (٧٥)

---

(١) ابن رشيق، العمدة: ١/ ١٣٤.

(٢) نقلاً عن د. جابر عصفور، مفهوم الشعر، ص ٢٣٩.

(٣) المومني، د. قاسم، نقد الشعر في القرن الرابع الهجري، ص ١٩٩ـ٢٠٢.

مرة في الدقيقة ويرون الصلة وثيقة بين نبض القلب وما يقوم به جهاز النطق وقدرته على إصدار عدد محدد من المقاطع. . وإذا تذكرنا أن بحراً كالطويل يشتمل البيت منه على (٢٨) صوتاً مقطعاً أمكننا أن نتصور أن النطق ببيت من الطويل يتم خلال تسع نبضات من نبضات القلب كما يرى الدكتور إبراهيم أنيس[١].

وإذا عدنا إلى الشاعرة الباعونية وجدنا تنوعاً في أوزانها الشعرية حيث وظفت أغلب الأبحر لأكثر من غرض أسوة بغيرها من شعراء العرب الذين منحوها ليونة لتتناسب مع أغلب الأغراض، فلم يقتصر البحر عندهم على غرض معين يجمده بقالب ثابت، وإنما كان لكل بحر دلالته الرمزية وذلك منعاً من الرتابة والتكرار. وقد ركز النقاد العرب على العلاقة بين وزن القصيدة وموضوعها، فقصائد المدح تحتاج إلى الوزن الطويل ولكن شاعرتنا كسائر مداح النبي ﷺ استخدمت الأوزان الرشيقة مثل استخدامها الأوزان الطويلة في مدائحها.

وشكل البحر الطويل أغلب قصائدها ويليه البحر البسيط، «ويعد البحران (الطويل والبسيط) من البحور التي كان القدماء يديرون غالبية شعرهم عليها»[٢].

لما «لهذين البحرين من علاقة قوية فعلاً بقوة البناء الشعري، ولأن أوزانهما تلائم التوتر والتحلم»[٣].

أكثرت من المجزوءات حيث بلغت (٣٢) مجزوءاً، لتجعل شعرها أكثر ترديداً في حلقات الإنشاد الصوفية، ولتعبر عن حالة عالية من حالات الحب الإلهي، قد تحتاج معها إلى سرعة يؤمنها البحر المجزوء الصادر عن الألفاظ المستعملة ذاتها»[٤].

---

(١) مجلة العربي عدد ١٠٤ تموز ١٩٩٦.

(٢) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر، ص ٥٠.

(٣) الرباعي د. عبد القادر صريع الغواني، ص ٢٨٤ـ٢٨٥.

(٤) إسماعيل، د. عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص ٢٧٤.

والقافية «تتصل بموسيقا الشعر وإيقاعه، وهي فاصلة موسيقية تنتهي عندها موجة النغم في البيت، وينتهي سيل الإيقاع ثم يبدأ البيت من جديد.

كالموجة تصل إلى ذروتها، وتنحسر لتعود من جديد وعلى هذا فإن القافية ختام السيل النغمي عندها تتوقف المعاني، مع أمواج النغم المتدفقة التفعيلات»[1].

وحد القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن ومرة تكون القافية بعض الكلمة ومرة كلمتين[2].

أما عن أنواع قوافي الباعونية فتنقسم قسمين: القوافي المطلقة والقوافي المقيدة، ومن قوافيها المقيدة قصيدتها:

فـــلا والله لا ألـــوي عليهـــم ولا أصغـي ولـو أضحـوا صـوارخ
ولـولا الحلـم مـا أغمـدت سيفـي إذن حتـــى أخليهـــم بـــراذخ

فقد زاحفت وأعصبت الوافر في بيتين[3]، حسب حالتها النفسية فهي إما أن تصفح عنهم أو تفتك بهم.

أما قوافيها المطلقة فقد طغت على أغلب أشعارها مما يدل على أن «قوافيها دالة على الفرح»[4].

«ولا يخفى أن لحالات القافية بإطلاق وتقييد ووصل بهاء مطلقة أو ساكنة لها دوراً في التعبير عن تجربة الشاعر»[5].

والحقيقة أن حال شاعرتنا الفرحة في قوافيها المطلقة يتناسب وحال الصوفي الذي يعيش فرحاً بالوصل الإلهي.

وتمثلت علل قوافيها «بالقبض والحذف والخبن والقطع والإضمار» أما عن

---

(١) المومني قاسم نقد الشعر في القرن الهجري الرابع، ص ٢٠٥.
(٢) ابن رشيق، العمدة: ١/ ١٥٠.
(٣) التبريزي، الخطيب، الكافي في العروض والقوافي، ص ٥١ ـ ٥٧ (راجع العصب والقطف).
(٤) الرباعي د. عبد القادر، صريع الغواني، ص ٢٩٠ـ٢٩١.
(٥) سلطاني، محمد، العروض والموسيقا الشعر العربي، ١١٦ـ١٢٢.

القافية والتي هي «شريكة الوزن في الاختصاص بالشعور، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية»[١].

ولنبدأ بعلل النقص وهي (القبض) وحده ذهاب الخامس الساكن من التفعيلة من ذلك قولها[٢]:

أقول وفيض الفتح لي قد تيسرا وسِرًّا عنا طه بِسرّي قد سرا

ثم تخالف الباعونية في وزني العروض والضرب (مفاعلن، مفاعي) قابضة في تفعيلة الأول وحاذفة في الثانية[٣]:

عسى تشهدوني ذاتكم وصفاتكم عسى تبرئوا كلمي بلطف كلام

والخبن وهو ما ذهب ثانيه الساكن في تفعيلتي (مستفعلن، فاعلن) فيصيران (متفعلن، فعلن) من ذلك قولها[٤]:

وكم جماد وحيوان عليه غدا مسلّماً بلسان غيرِ منعجم

والقطع والإضمار معاً، فالأول في العروض والثاني في الضرب كما في الشاهد التالي[٥]:

أمن التفرق والبعاد سقامي أم من شديد الشوق والتهيام

ومن عللها الزائدة قولها[٦]:

ترقَّ عن الأسباب وثم عن الخلق تفوز برؤيا الحق للحق بالحق

حيث وظفت تفعيلتي العروض والضرب تامتين.

كما وجدنا عند الباعونية ظاهرة الخروج على القافية من ذلك قولها[٧]:

غرام له بين الضلوع دبيب وشوق له وسط الفؤاد لهيب

---

(١) ابن رشيق، العمدة: ١/ ١٥١.
(٢) الباعونية در الغائص في بحر المعجزات، ق١.
(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٢٢.
(٤) الباعونية، عائشة، النبويات، ق٢٢.
(٥) الباعونية، عائشة، فيض الفضل ق٢٢.
(٦) المصدر نفسه، ق ٩٨.
(٧) المصدر نفسه، ق١٩.

ووجد لقد أذكى الأسى عند جمرة وأضحى له حشو الفؤاد يذوب
يذوب ويجري من عيوني مدامعا تحاكي انهمال الغيث وهو سكوب
وأعضاء أضناها الحنين إلى اللقا وقلب على ورد الوصال وجيب
وجسمي غدا فان ببعدي عن الحمى ولم يبق إلا زفرة ونحيب
وعين فلا ينفك وابل دمعها على البعد من تلك الديار حبيب

ومن عيوب قوافيها الإقواء، وهو اختلاف حركات إعراب القوافي فتكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة، كقولها[1]:

الحق أنت وما سواك فباطل والكل آثار وأنت المؤثر
وأنا الجويرية التي قد أصبحت أدنى جميع العالمين وأحقرا
كم من منايح كم نوال كم عطا كم رحمة شملت ولم تتأخر

ومن عيوب قوافيها السناد وحده في اختلاف حركات حرف ما قبل الروي كسراً و فتحاً وضماً ومثال ذلك قولها:

وأصبحت والحب لي قائدا وأمسيت والشوق لي يجذب
إلٰه الورى مطمع الآيسين سوى القرب منك فلا مأرب
فصل عليه صلاة بها تبلغنا منك ما نطلب

ومن عيوب قوافيها الإيطاء وحده تكرير لفظ القافية بالمعنى نفسه ومعناهما واحد وكلما تباعد الإيطاء كان أخف من ذلك قولها[2]:

إذا قدمت عزمي للمعالي يؤخرني عن التقديم حظي
وأن تبلغ فؤادي كل قصدي وأن تجزل إلهي منك حظي

ومن عيوب قوافيها التضمين الذي عده أغلب النقاد عيباً عدا ابن الأثير؛ لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثاني، فليس ذلك بسبب يوجبه عيباً، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنشور في تعلق إحداهما بالأخرى[3].

---

(١) المصدر نفسه، ق٧ ـ ٨.
(٢) نقلاً عن يوسف بكار بناء القصيدة ١٨٧.
(٣) المصدر نفسه. ١٨٧.

كقولها:[1]

وكدت بأن ألقي التلاف فجاد بي بطيب خطاب الفؤاد يقول:
إذا رمتَ منا الوصل أخلص لنا بنا وخل السوى، واقصد وأنت ذليل

ومن عيوب قوافيها القافية المستدعاة وحدها أنها لا تفيد معنى وإنما أوردت ليستوي الروي فقط من ذلك[2]:

طويل العصا من قد عصى يرم بالحصى
شريف الخصال أشرف الخلق والورى

* * *

(١) الباعونية، عائشة، فيض الفضل ١٢٠.
(٢) الباعونية، عائشة، در الغائص، ق٢.